مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 07 عدد: 02 السنة: 2021 E-ISSN:2588-2325

مفهوم الهوية: النشأة والتطور في تاريخ أوروبا الحديث
مقاربة سوسيو- أنثروبولوجية

The concept of identity: emergence and development in the modern history of Europe Socio-anthropological approach

شريفة بريجة*، جامعة محمد بن أحمد- وهران 2، bridjacherifa@gmail.com
قويدر سيكوك، المركز الجامعي نور البشير- البيض، k.sikouk@cu-elbayadh.dz

تاريخ الإرسال: 2021/08/31 تاريخ القبول: 2021/09/23 تاريخ النشر: 2021/12/10

ملخص:

عرفت مسألة "الهوّية" خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأوروبا تطورا واضحاً في المفهوم في مجال اللغة والفكر والقانون، وتكرس هذا التطور في واقع المجالات السوسيوثقافية والسياسية عبر دول العالم، وخاصة عند الشعوب المُستعمرة، بصفتها مطلبا مشروعا يرتبط بل ويؤسس لتقرير المصير من خلال الاستقلال. كما أصبحت الهوية إشكالية قائمة تثير النقاشات في الأوساط الأكاديمية، وبالأخص في العلوم الاجتماعية بمختلف فروعها لكون أن مفهوم الهوية من المفاهيم المعقدة والمتناقضة التي يكثر استخدامها ويصعب تعريفها وتحديدها بدقة. لذلك يمكن الجزم بأن الهوية كمفهوم، تقع في مفترق الطرق بين مجالات بحثية ومعرفية متعددة.

ومن خلال هذه المقالة، نقدم قراءة نقدية سوسيو-أنثروبولوجية لهذا المفهوم، وللظروف المحيطة بإعادة انبعاثه في التاريخ الحديث في العالم بشكل عام، وفي أوروبا بوجه الخصوص، لما لهذه القارة من أهمية في التحولات الفلسفية والفكرية المصاحبة لإعادة التشكيل السياسي والثقافي للعالم. وعليه فإن هذا البحث هو مقاربة سوسيو-ثقافية لمفهوم ومسار تشكل الهوّية وأهم المحطات والمسارات التاريخية التي ساعدت في تكوينها.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الهوية الثقافية، أوربا، سيرورة، الخصوصيات الجهوية.

* المؤلف المرسل

Abstract:

The issue of "identity" during the eighteenth and nineteenth centuries in Europe witnessed a clear development in the concept in the field of language, thought and law, and this development was enshrined in the reality of the socio-cultural and political fields across the countries of the world, especially among the colonized peoples, as a legitimate demand linked and even establishing self-determination through independence. Identity has also become an existing problem that raises debates in academic circles, especially in social sciences in its various branches, because the concept of identity is one of the complex and contradictory concepts that are frequently used and difficult to define and define accurately. Therefore, it can be asserted that identity as a concept lies at the crossroads between multiple fields of research and knowledge.

Through this article, we present a socio-anthropological critical reading of this concept, and of the circumstances surrounding its resurgence in modern history in the world in general, and in Europe in particular, because of the importance of this continent in the philosophical and intellectual transformations accompanying the political and cultural reshaping of the world. Accordingly, this research is a socio-cultural approach to the concept and path of identity formation and the most important historical stations and paths that helped in its formation.

Keywords: Identity, cultural identity, Europe, process, regional peculiarities.

مقدمة:

إن البحث في إشكالية الهوّية _والهوّية الثقافية بشكل خاص_ ومسار تكوينها والنظر في وظيفتها، وفي تفسيرها لمختلف الأوضاع والاختلافات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هو، بالضرورة، بحث سوسيولوجي وانثروبولوجي بأبعاد نفسية سيكولوجية ومرجعية فلسفية. لذلك نجد الكثير من الباحثين في مجال هذه العلوم يهتمون بهذه المسألة، لما تعرفه من تحديات، وتحولات متناقضة، وصراعات في ظل ما تعيشه المجتمعات من عولمة، ونزعة عرقية، وتهجين، وهجرات... والكثير من المظاهر المؤثرة فيها، ولمعالجة هذا الموضوع ينطلق البحث من الإشكالية التالية:

متى ظهر مفهوم الهوية وكيف أعيد بعثه بأوروبا الحديثة في حقول البحث في العلوم الاجتماعية؟

ويهدف البحث إلى إبراز حقيقة أن فهم مسـألة "الهوية" في الوقت الراهن لا يتأتى إلا من خلال العودة إلى الأسـس الفلسـفية والتيارات الفكرية المصـاحبة لنشـأة المفهوم. وأن إعادة بعثه في التاريخ الحديث مرتبطة بمعالجته في حقول بحث العلوم الاجتماعية ضـمن أنسـاق اجتماعية وثقافية وسياسية محددة.

1. مفهوم الهوية:

الهوية هي نتيجة السيرورات الثقافية والعمليات الاجتماعية التي تعمل على تشكيلها(الهوية) طوال حياة الأفراد وعلى امتداد علاقاتهم بالآخرين وتخضع لعملية التناقل. ويعرفها علي حرب " بأنها صيغة مركبة وملتبسة بقدر ما هي سوية مبنية على التعدد والتعارض، وهي عقدة من الميول والأهواء بقدر ما هي شبكة من الروابط والعلاقات، وهي توليفة من العقائد والمحرمات بقدر ما هي سيرورة نامية ومتحركة من التحولات والتقلبات" (حرب.ع،2008 ،الصفحة 201) ولكثرة التعاريف حول هذا المفهوم الاستراتيجي، الذي يعمل على انتظام المجتمعات وتماسكها، وارتباطه بالفرد من حيث الشعور بوجوده، وانتماءه، وتفاعلاته مع بيئته وهي:

" تمثلات ذهنية منقوشة في وجدان كل فرد منا، تتعايش داخل الأفراد وداخل المجموعات الاجتماعية، وعلى الرغم من أنها في المظهر قد تكون متعارضة وتبدو حصرية لفئة دون أخرى، فإنها (الهويات) تتحكم في تحديد التصورات التي نكوّنها عن الآخرين وعن أنفسنا وعن علاقتنا بالآخرين" (O.Bruno, 2009,page 22)

كما نرى أن الهوّية ترتبط بالفرد والمجتمع، والفردي يصير هوية جماعية على حسب المدرسة الثقافوية (Culturalisme)، وهذا ما يفسر اهتمام علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا وعلماء النفس بها، ومحاولة فهم وظيفتها. وعليه سنتطرق لمفهوم الهوّية من منظور سوسيولوجي وانتروبولوجي ضمن مجموعة من التعاريف، لننتقل إلى الحديث حول مسار تطورها وأهم المحطات التاريخية التي ساعدت في تكوينها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأوروبا خاصة، لكونها عرفت تطورا واضحًا في المجالات السوسيوثقافية والسياسية، وكذلك عند الكثير من الشعوب المُستعمرة بصفتها مطلبا مشروعا تحول إلى إشكالية قائمة تثير الجدل والنقاشات في الأوساط الأكاديمية، وبالأخص العلوم الاجتماعية.

2. الهوّية من منظور سوسيولوجي وأنثروبولوجي

تعالج العلوم الاجتماعية مفهوم الهوّية وتستخدمه في عدة معان، ولتأكيد هذا يمكن أن نعود إلى العديد من السوسيولوجيين والانتروبولوجيين من بينهم الكندي- لويس جاك دوري -Louis Jacques Dorais الذي يُعرف الهوّية على أنها "ليست ثابتة، ولكنها تتصف بديناميكية تبرز عندما تُستخدم". (Dorais, 2004,page11) وعليه فإن استعمال الهوية، يبرز من خلال الطريقة التي يتصرف بها الأفراد اجتماعيا لكي يبرهنوا عمّن هم: أي عندما يتعاملون مع العناصر المحيطة بهم. ويضطلع التعبير اللغوي بالدور أساسي في ذلك بسبب كثافة استخدامه أثناء تفاعل الأفراد الفوري مع تأثيرات الوسط. على هذا الأساس شبه دوري " الهوية بالسيرورة التي تتشارك فيها مجموعة من الأفراد في طريقة معينة وموحدة لفهم الكون، والأفكار وأشكال السلوك، وهم، في ذات الوقت، واعون باختلافهم مع مجموعة أفراد أخرى." (Dorais, Inuit identities, 2001,page17) ويعتبرها أيضاً " عملية ديناميكية، بفضلها تتشارك مجموعات من الأفراد في الكثير من الصفات لفهم العالم، ويؤثرون في محيطهم وينشرون أنماط تصرفهم إزاء أفراد آخرين في مجموعات أخرى، ويفكرون بصفة مختلفة، ويتصرفون بطريقة مختلفة عن صفاتهم." (Inuit identities, Dorais, 2001, page35)

في هذا التصور الذي أعطاه "دوري" للهوية وجهان: وجه التشابه ووجه الاختلاف:

- فنحن متشابهون مع عشيرتنا أو رفاقنا أو فيما بيننا.
- وفي الوقت نفسه، نتميز عن الآخرين، الذين لا ينتمون إلى مجموعتنا.

ونستشف من هذا التصور أن الهوية كالعملة الواحدة ذات الوجهين: وجه التشابه: ويعني لدى الفرد الانتماء، ووجه الاختلاف: ويعني العلاقة مع الآخر.

ولذلك فإن "الهوية الثقافية هي مجموع الصفات التي تطبع أي شعب في نمط حياته ورؤيته للعالم" (Dorais, La construction de l'identité, 2004, Page10). أما كارمل كاميليري Carmel Camilleri فيقول عن الهوّية أنها: " وعلى الرغم من خاصيتها المتحولة تبعا للمواضع والأزمنة، تُمكن الفرد من أن يحافظ فيها على وعيه ووحدة بقائه بحيث يعترف به عند الآخرين بأنه "هو". (Gaujelac, 2016, page 177) ويشترك في هذا الاعتبار الفيلسوف الفرنسي ميشال سيريز Michel Serres الذي يرى أن " الهوية تنطبع بتحولات غير منتهية." (Serres, 2013,page153)

والسوسيولوجي الفرنسي- جون كلود كوفمان Jean-Claude Kaufmann الذي يرى أن"تكوّن الهوية الاجتماعية يتم عن طريق أدوار نلعبها في المشهد الاجتماعي." (Kaufman, 2004, Page 39) أما السوسيولوجي الأمريكي إيرفنغ قوفمان Erving Goffmanفيُبيّن أن "هوّية الفرد تتحقق

من خلال لعبة التداخل بين هوية لنا يَعرفها الآخر وهوية تعرفها الذات." (Goffman, 2013,page256)

ويرى الأنثروبولوجي النرويجي فريديرك بارث Frederik. Barth بأن " الهوية هي ذلك النظام الذي يتكون من نسيج الوضعية العلائقية بل هو من تجلياتها." (خليفة، 2007،الصفحة112) إن الهوية، في نظره، "ظاهرة مركزية في نظام العلاقات بين الجماعات وتستخدم خارجها لأغراض التصنيف (من يشابهنا ومن يختلف عنّا) وتنظيم التبادلات في كل مجالات الحياة." (خليفة، 2007،الصفحة112) ويذهب بارث في دراسته "الحدود بين الجماعات الإثنية" إلى أن " التمايز بين الهويات الثقافية خاصة يرجع في الحقيقة إلى نوعية العلاقات بين الجماعات والطريقة التي يبرز بها الاختلاف ضمن تلك العلاقات، وبالتالي فان الهوية ليست معطى أولياً ونهائياً بل إنها في حالة بناء دائم ينبغي دراستها من خلال الوضعية العلائقية." (خليفة، 2007،الصفحة112)

ويعني ذلك أنه لا وجود لهوية ثابتة (statique) وإنما تضل سيرورة البناء الهوياتي متواصلة ولا متناهية بتواصل علاقات الفرد بالآخرين من الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وتواصل علاقات الجماعة ذاتها بالجماعات الاجتماعية الأخرى. وعلى هذا الأساس يذهب أمسال .Jean-Loup Amselle إلى أن " البناء الهوياتي، وبالأخص عند القبيلة، هو سيرورة تتأسس من مميزات على أساس اللغة والعلاقة بالفضاء والتقاليد والاسم والنسب الواحد والوعي بالانتماء المشترك، بما يسند للشعور بالانتماء مهمة وضع أساس البناء الهوياتي." (Vinssonneau, 2002 ,page119)

كما يُمكن لذلك الشعور أن يتخذ صورة ارتباط بالماضي كما تصور الأنثروبولوجي كوندو Joël CANDAU في كتابه "ذاكرة وهوية" الذي تناول فيه بناء الهوية الثقافية أو الجماعية، وفيه يُوجه تفكيرنا نحو "الذاكرة" بوصفها " (Candu, 1998 ,page07) أهم العناصر الرابطة بين البناء الاجتماعي والهوّية. إذ وفي اعتباره: "تعيد الذاكرة بناء ماضي المجموعة ومن ثم تبني عناصر الهوية الفردية والجماعية." (Candu,1998,page07)

وهو نفس تصور الأنثروبولوجي شيفا Isac Chiva الذي يرى أن " الذاكرة تُؤسس الهويات الجماعية وهي قوة الهوية ." (Candu,1998,page07) ويُؤكد بأن " الذاكرة هي الهوية وهما تدعمان بعضهما البعض، فلا يوجد بحث عن الهوّية بدون ذاكرة ولا يمكن الفصل بينهما." (Candu,1998,Page07) ويقول ليفي ستراوس Lévi-Strauss بأن الهوية: "هي نوع من المكان الافتراضي الذي لا غنى لنا عنه، فهو بمثابة نقطة مرجعية لنا، ولشرح الأمور التي ليس لها في الواقع، وجود حقيقي" (Strauss, 1987, page332) وهنا نفهم بأن الهوية هي بناء رمزي يُشيده العقل.

وتُوضح الأنتروبولوجية الفرنسية جنيفياف فانسونو Genevieve Vinsonneau في كتابها " ثقافة وسلوك" «*Culture et comportment*» أن " في معنى الهوية أمرين:

- أولهما مجموع المظاهر التي يتمّ عبرها التعرف على صفات الذات من طرف الفاعلين الاجتماعيين الذين يعطونها معنى ومضمونا.

- أما الثاني فيشير إلى محتوى تلك المظاهر. ومن خلال التداخل والتكامل بين المظاهر ومحتوياتها تتحقق الهوية، تتحقق عبر صيرورات (devenirs) جدلية تتكون من دمج المتضادات وتراكم المتشابهات وتمايز الاختلافات بما يحقق ربط الماضي مع الحاضر والمستقبل." (Vinsonneau, 1997,page179) لهذا ترى الباحثة أن: " كل إنسان هو في الآن ذاته:

- هوية مطلقة: وهي تعبر عن ما هو عليه.

- هوية مرجوة: وهي تعبر عن ما يتمنى أن يكون عليه.

- هوية مفروضة: وهي تعبر عن ما هو مطلوب منه أن يكون عليه." (Vinsonneau, 1997,page179)

ويجب الإشارة إلى أن التحليل النفسي لمفهوم الشخصية، إنما ينطلق أساسا من هذه "الهويات" التي تعتبر المكونات الأساسية للشخصية ويعبر عنها بـ "الأنا الأعلى" (الهوية المفروضة) و "الهو" (الهوية المرجوة) و "الأنا" (الهوية المطلقة).

كما ترى بأن " مسار تشكيل الهوية يكون متجذرا بقوة في الواقع المحسوس وهو يستجيب بشكل خاص للصراعات الاجتماعية." (Vinsonneau, Mondialisation et identité culturelle, 2012, page 64) ونعتقد أنه يستجيب أيضا لصراعات الفرد مع ذاته. وتُوضح "فانسونو" أيضا بأن "الهوية صيرورة إنجاز(synchronie) لنظام رمزي ولذلك الهوية لا تورث ولا تكتسب نهائيا، وعلى الأخص في ظل تسارع التبادلات الإنسانية وعولمة الاتصال وتوسع عدم التجانس الثقافي، وبفعل حركية التداخل البيني الثقافي. لا أحد يكون مغلقا في هوية خاصة به، ونتيجة ذلك تمر منظومة قيمه وثقافته عبر تشكلات متجددة بفعل الاحتكاك الثقافي. وفي هذا المعنى تكون انتماءات الفاعلين الاجتماعيين إلى مجموعات ثقافية متمايزة، وفيها يمثل استعمال مفهوم "بَيْن الثقافات"، وفي الوقت ذاته، الهوية والاختلاف وتجربة التموضع واحدا في "مواجهة" الآخر." (Vinsonneau, Mondialisation et identité culturelle,2012,page 68) انطلاقا من اعتبارات مشابهة توصل ادغار موران Edgar Morin إلى إمكانية بناء هوّية بشرية مشتركة انطلاقا من عناصر الوحدة التي تجمع بين البشر، فهي " وحدة إزاء الموت ومشترك في الثقافة الإنسانية، مؤكدا أنه ليس ثمة تعريفا

للثقافة يشمل جميع الثقافات من غير النظر إلى اختلافاتها...إذ ثمة اختلاف بشري، كما ثمة وحدة داخل الاختلاف البشري، وكذلك اختلاف داخل الوحدة البشرية، ولا ينبغي للاختلاف الشديد أن يخفي الوحدة ولا للوحدة الأساسية أن تخفي الاختلاف." (Morin, 2011,page82) ومن خلال هذا التعدد في تعريف الهوية في إطار الفكر الفلسفي الحديث ومجال البحث السوسيولوجي والأنثروبولوجي، وحتى الدراسات النفسية، يتبين لنا مدى الأهمية التي كانت تحظى بها مسألة الهوية في العلوم الإنسانية والاجتماعية في أوربا على وجه الخصوص ومن ثمة، في العالم بأسره، لما لأوربا من علاقات تاريخية واجتماعية واقتصادية بباقي أنحاء المعمورة، نتجت وتطورت كنتائج موضوعية لما خلفته ظواهر الاستعمار والاستيطان التي قادتها الإمبراطوريات الأوروبية.

وما يمكن التأكيد عليه، هو أن الهوية هي مجموع السمات والصفات الجوهرية التي تجعل من الشخص واعيا بكونه "أنا" متميزا عن الآخر، وأن الوعي بهذا "الأنا" لا يتأتى إلا من خلال الوعي بتميز وخصوصية الآخر. والهوية ليست معطى جاهزا ثابتا يتوارثه الفرد، جيلا عن جيل، بل هي نسق من العناصر الوجودية والرمزية المتحولة والديناميكية، مما يجعل منها سيرورة لا متناهية الإنجاز، ممتدة بين ما تحتفظ به ذاكرة الفرد والذاكرة الجمعية من خصوصية وتميز، مرورا بالوجود الاجتماعي بكل ما فيه من تفاعل بين الخاص (الأنا) والعام (المجتمع)، وتفاعل الجماعة الاجتماعية (الانتماء) والفضاء الكوني(العالم)، لتصل إلى التفاعل بين ما يصبو إليه الفرد داخل مجتمعه والوجود الإنساني.

ولا يمكن الإلمام بمفهوم الهوية دون الخوض في نشأته ومراحل تطوره.

3. المراحل الأولى لتشكل الهوّية في العصر الحديث وخطر الخصوصيات الجهوية:

لا يمكن على الإطلاق تحديد فترة زمنية لنشـــأة مفهوم الهوية ولكن وباعتبار الحضـــارة اليونانية منعرج حاسم في تاريخ الإنسانية بشكل عام وتاريخ العلوم بشكل خاص، فإن مفهوم الهوية كان حاضـرا في فلســفة ســقراط (أعرف نفســك بنفســك) وأرســطو(الهوية هي واحدية الوجود) ومختلف الاتجاهات الفلســفية والجماعات الفكرية كما هو الحال عند الرواقيون الذين ربطوا مفهوم الهوية بمفهوم المسؤولية وكان ذلك قاعدة متجددة في دراسة وفهم مسألة الكونية أو العالمية (cosmopolitisme). أما عن مســألة الهوية في التاريخ الحديث، فإنه من الضــروري العودة إلى الأوضـاع في أوروبا خلال القرن الثامن عشـر، خاصـة السـياسـية والثقافية منها، لفهم أبعاد الهوّية التي أصبحت اليوم مشكل الساعة، إلى درجة أنها اكتسحت الميادين السياسية والدينية والاجتماعية

ومســـت العديد من الدول، بما فيها الدول الأوروبية التي كانت بالأمس تقمع الاختلافات الجهوية ولا تسمح باستعمال اللهجات المحلية، وكل الخصوصيات أو السمات الجهوية المتواجدة في عدة أقاليم من أوطانها.

تاريخيا إن مشكل ما يسمى ب"الخصوصيات الجهوية أو الإقليمية" spécificités régionales يقصد بها الثقافات المختلفة المتواجدة في بعض الأقاليم التابعة لإمبراطورية ما، يرجع إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بأوروبا، حيث بدأت تبرز ظاهرة "إيقاظ الوطنيات" (le réveil des nationalités) التي قامت ضد الإمبراطوريات الكبرى المُهَيمنة آنذاك على القارة الأوروبية. نذكر من بينها الإمبراطوريات التي كانت تحتل مناطق بأوروبا وجهات كثيرة من أنحاء العالم: النمساوية والعثمانية والفرنسية والروسية والبريطانية والإسبانية والبرتغالية. ففي سنة 1815م انعقد مؤتمر "فينا"(congrès de Vienne) (لاسكوريتس،2017،الصفحة05) بعد انهزام الإمبراطورية الفرنسية للنظر في مصير المناطق التي احتلها نابوليون الأول بأوروبا قصد توزيعها بين المنتصرين عليه، والتي تم تقسيمها بينهم بصفة سلطوية وحسب أغراض سياسية.

وخلال الفترات التاريخية بعد هذا التقسيم وحسب الظروف السياسية وتقلبات الأوضاع والصراعات التي نشبت في بعض الأحيان بين المستفيدين من هذا التقسيم تارة، وداخل إحدى الإمبراطوريات في أحيان أخرى، بدأت تقوم حركات تمرد في العديد من المناطق ضد السلطات التي ضمتها، مُطالبةً بالتخلص من الهيمنة عليها، وغالبا ما كانت تُحَرَض هذه الحركات من طرف واحدة من تلك الإمبراطوريات ضد الأخرى، ساعية من وراء ذلك إلى إضعاف خصمها بسبب الخلافات والنزاعات الناشبة بين الإمبراطوريات، (كورتن، 2007،الصفحة 09_31) والأمثلة كثيرة:

- إيطاليا ضد الإمبراطورية النمساوية
- ألمانيا أي المملكة البُروسية سابقا وحروبها ضد النمسا
-روسيا وحروبها بمناطق "البلقان" وبأوروبا الشرقية

فبدأت تُرسم خريطة جديدة لأوروبا حيث برزت للوجود دول لها وحدة إثنية أو ثقافية مثل ألمانيا أو إيطاليا ودول أخرى تتكون من عدة إثنيات (Ethnies) مختلفة، ولكنها أصبحت تُكَوِن كيان سياسي (الدولة-وطن). وعلى غرار ما وقع من تحولات سياسية بأوروبا بين 1815م و1913م والتي غَيّرت رسم خريطة الحدود لدول هذه القارة، حيث ظهرت للوجود دول قائمة على الوطنية الواسعة ضمن "دولة-وطن" موحدة لكنها تشمل عدة مناطق مُتَميّزة.

ومن ثمة فان أوضاع العالم غداة الحرب العالمية الثانية عرفت انتفاضات ومطالب أكثر وضوح في ما يخص أهدافها منها السياسية، أي التخلص من الاحتلال واسترجاع السيادة، ومنها

الثقافية ونعني بها الاعتراف بهوياتها الثقافية والاعتراف بالسِمات الجهوية المبنية على اللغة والتراث الثقافي المشترك لجماعات كانت بالأمس ممزقة ومشتتة ومكبوتة. أو الدينية أين ظهرت للوجود في بعض الجهات، جاليات متدينة طالما كانت محظورة، أو إثنية، تعرضت تصفيات عرقية عبر التاريخ والتي أصبحت الآن تظهر للوجود ويعتني بوجودها وبتراثها الذي محقه المحتل مثل ما وقع لجماعات "الهنود الحمر" بأمريكا أو بجاليات "المايا" و"الأزتاك" في أمريكا الجنوبية، وقصد ترسيخ مبدأ الدولة المنسجمة سياسيا والمبنية على الوحدة اللغوية والثقافية ناهضت هذه الدول كل الميزات الجهوية باسم "وطن واحد وشعب واحد" له لغة رسمية واحدة وتراب ذا حدود ثابتة وراية ومصير مشترك، الأمر الذي اكتسى وجها خاصا، بمعنى أن تلك الفترة كانت تمتاز بـ:

- سياسات التجاهل لثقافات الشعوب القاطنة منذ قرون في بعض أقاليمها شمالا أو جنوبا ويُعتبر تراثهم الثقافي من "الخصوصيات الجهوية " التي هي في طريق الاندثار،

- قرار استعمال اللغة الرسمية في الفضاء العمومي والإدارة والوثائق والتعليم بُغية تعميمها لتكوين جيل من المواطنين لهم وحدة سياسية في دولة واحدة،

- طمس كل " الاختلافات الجهوية " كما هو الشأن في بعض الجهات من أوروبا التي هي متكونة من جاليات لُقِبَت بـ" أقليات لغوية".

ومن المنظور السياسي، الخطة المتبعة من طرف هذه الدول كان لها قصد مُتَعَمِد وواضح، فقد رَميت الى القضاء على كل تراث ومحو كل ما من شأنه المساس بتلك الوحدة التامة لدولتهم الموحدة المُتكونة من "مواطنين" لهم نمط وطني، فلا تَقبل الاختلافات ولا الخصوصيات الجهوية لهذه الجماعات، إلى درجة أن لُغاتهم أصبحت تعتبر لهجات محظورة من التدريس والتعبير، وكانت ثقافاتهم يُستَهان بها، وتُلقب بأنها مجرد "فلكلور" سواء من خلال التظاهرات أو المواسم أو الحفلات أو اللباس أو الإنتاج الفني... وحتى المناسبات الدينية عندما تكون مختلفة عن الدين السائد في الدولة تُحتقر هي الأخرى.

طبقت الدول الأوروبية نفس الخطة، أي كبح وقمع الثقافات في مستعمراتها بإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، فقد كان القهر الثقافي شديدا حتى تتم عملية طمس مكوناتهم الثقافية عن طريق أولا تجهيلهم لها، ثم بدفعهم الى تَبني ثقافتهم "السامية والراقية" وإدخالهم في دين المحتل.

على سبيل المثال التعليم بالمستعمرات الفرنسية: كان يُدرّس في مادة التاريخ برنامج التاريخ الفرنسي ولا يُشار في الكتب المدرسية إلى التاريخ الخاص بالجهة أو البلاد المُحتلة (الوطن الأم)، سواءً كان التلميذ بالسينيغال، أو بالجزائر أو منطقة أخرى...

4. الاستيقاظ الثقافي وبروز الهوّية

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة 1945م أصبحت أوربا منطقة من بين المناطق الأخرى مُنهارة عمرانيًا واقتصاديا، وعرفت تقهقرا سياسيا بسبب الهزيمة بينما كانت سابقا مركز العالم بجمهورياتها القوية: فرنسا، ألمانيا، انكلترا ،إيطاليا...فحان الوقت لمناطق عديدة التي كانت مكبوحة لتقوم بإبراز ثقافاتها الجهوية والحصول على اعتراف رسمي لوجودها كمكسب ثقافي ذو مشروعية. لهذا بَرزت هذه المطالب الثقافية واللغوية والدينية على الواجهة وأصبحت من بين انشغالات المنظمات العالمية الجديدة: منظمة يونسكو (Unesco) والجمعية العامة للأمم المتحدة (O.N.U.1945) والتي أصبحتا تضمان في صفوفها أعضاء جدد من الدول حديثة العهد بالاستقلال، والذين اتخذوهما كمنبر عالمي لطرح على بساط النقاش لمطالبهم السياسية (رفض الضغوطات السياسية والاقتصادية من المستعمر السابق) وخصوصياتهم الثقافية من لغة وطنية وتمدرس وصحة، وبرامج تنموية، وبالأخص طلب مراجعة الحدود الموروثة من فترة الاستعمار والتي لا تأخذ بعين الاعتبار المعطيات الإثنية أو الدينية أو الثقافية، أي كل ما يخص الهوية الثقافية الجماعية الراسخة في فضاءاتهم الثقافية منذ قرون، والتي فككها المستعمر وقام بتشتيت الجماعات والقبائل وطمس ثقافاتهم الأصلية. وأكثر من ذلك حرص على استعمال خصوصيات الهويات الثقافية واستغلالها كعنصر شقاق وتفرقة، فعلى سبيل المثال نذكر ما وقع من حروب أهلية، فكثيرا ما قام المستعمر السابق بتحريض الجماعات ونشر الفتنة بينهم مُستغلا اختلافاتهم الإثنية، حيث نشبت حروب جوارية بين دول سواء آسيوية مثل البنغلاداش وباكستان، الهند والكشمير أو عدة دول بالشرق الأوسط وأقلياتهم الكردية،والأرمن،واللاز... أو بافريقية مثل البوروندي والرواندا، وبين إثنية الحوتو وإثنية التوتسي...

وخلال العشرية التي تلت الحرب العالمية الثانية تغيرت المعطيات السياسية والثقافية بسبب التغيرات الجيو-سياسية التي طرأت مثل:

- قيام القُطبان المتضادين ونشوب "الحرب الباردة" بينهما،
- بداية تقهقر الاستعمار بسبب قيام ثورات وطنية ذات مطالب سياسية وفي نفس الوقت ثقافية ودينية واجتماعية،
- نهوض دول العالم الثالث (دول عدم الانحياز)،
- التطور التكنولوجي الذي طوّر وسائل الإعلام والاتصال، ومكّن من انتشار الثقافة والإعلام وبث الأفكار التحررية عبر العديد من جهات المعمور حيث بدأت تُداع برامج (مثل:"هنا صوت... ") التي تنشر مطالب سياسية ودينية ولغوية الخاصة بقضايا تتعلق بمجموعات جهوية كانت سابقاً مكبوتة،

- ظهور قرارات منظمات عالمية ((Unesco, Onu) والتداخل والاحتكاك بين الثقافات...الخ .

كل هذه المعطيات الجديدة بدأت شيئا فشيء تصقل المناخ الثقافي الجديد، مثل:

- ظهور أفكار تحررية ونشرها في مؤلفات غير أوروبية تطالب بمبادئ جديدة مثل حقوق الإنسان وبإحياء التراث الثقافي.

- قيام الحركات الوطنية التحررية عبر آسيا (الهند ضد انجلترا، والهند الصينية ضد فرنسا، واندونيسيا ضد هولاندا، وفي الشرق الأوسط قيام دول وطنية عربية، وبشمال إفريقيا قيام حركات تحريرية، وطنية ضد فرنسا) بالإضافة إلى قرارات منظمة الأمم المتحدة والمواقف المعسكرين ضد الاستعمار، وتطبيق تقرير المصير الشعوب المحتلة بدأت تؤثر على سياسات الدول الأوروبية...

ومن الملاحظ ان الدول "العظمى" التي كانت سابقاً تناهض الثقافات وتفرض "حضارتها الراقية" أضحت في الوقت الراهن تعترف بالخصوصيات الجهوية والمحلية الخاصة وبالأقليات التي لها هويتها الثقافية الخاصة بها. مثل المملكة البريطانية التي اعترفت بالخصوصيات الثقافية لسكوت لندا وإرلندا كذلك فرنسا بإقليمي الألزاس وبريتاني، وإسبانيا التي عانت من مقاومة من طرف إقليمي الباسك وكطالونيا واعترفت بخاصياتهما. ناهيك عن بلجيكا وفَضائَيْها الثقافتين: فلامان ووَلون (Flamands et Walons)، والأمثلة متعددة عبر أمريكا كحق الهنود الحمر في إحياء ثقافتهم، أو الشعب الزوني بالجنوب الغربي لأمريكا، وبجنوب أمريكا اللاتينية الأنكا...الخ.

وعليه بدأت تظهر أبحاث علمية جديدة وتُنظم مؤتمرات عالمية تحت تحفيز اليونسكو لدراسة بعض الظواهر الثقافية، كما قام المهتمون السوسيو-سياسيين بوضع مفاهيم جديد في هذه الميادين التي حظيت باهتمام خاص من طرف العلوم الاجتماعية، فظهرت مصطلحات جديدة مثل: "التعدد الثقافي" و"التنوع الثقافي" و" الخصوصيات الثقافية الجهوية". ثم تدريجيا وخلال الستينات ظهر مفهوم جديد له ارتباط قوي بعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السياسية وهو: "الهوية الثقافية" وكثرت الأبحاث الميدانية الجامعية المختلفة عبر عدة مناطق من العالم (خارج أوروبا) وأثارت نقاشات أكاديمية حوله الى يومنا. وبدأت تتعدد تسميات الهوّية: الهوية الثقافية، الهوية الجماعية أو الجمعية، الهوية الوطنية ...وشرعت مختلف التخصصات في دراستها.

خاتمة:

عرف مفهوم الهوّية تطورا كبيرا بسبب الشعوب التي كانت تعيش تحت نير الاستعمار، الذي كان يهدف إلى محو ثقافات المناطق التي استحوذ عليها، والتي رغم القمع الثقافي الذي كانت تعاني منه طيلة فترات طويلة من الزمن بقيت متشبثة بثقافاتها المتميزة _علانية أو خفية_. ولهذا كانت مطالبهم تارة ثقافية وتارة دينية وأخيرا سياسية، وكثيرا ما لجئوا للقيام بحركات تحررية مسلحة لاسترجاع سياداتهم وهوياتهم الثقافية الأصيلة.

وبالرغم من انتهاء الحقبة الاستعمارية في مختلف جهات العالم فإن القوى الاستعمارية قد تركت في مستعمراتها السابقة العديد من القنابل الموقوتة مثل إثارة النعرات الطائفية أو العرقية، لتتمكن من مراقبة الشعوب والسيطرة على خيراتها حتى وهي مستقلة. ولهذا السبب لا زالت العديد من الشعوب ذات الاستقلال الحديث لم تتخلص من الصراعات الداخلية التي زرعها الاستعمار لتبقى هذه الدول حبيسة لهذه المشاكل مما يعرقل تطورها واستقرارها. وتبقى مسألة الهوية إشكالية قائمة في مختلف الدول، وتحتاج هذه الإشكالية إلى معالجة جذرية توافقية لضمان العيش المشترك والاستقرار.

قائمة المراجع والمصادر

العربي، ولد خليفة. (2007). *المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية في الجزائر*. الجزائر: منشورات ثالة.

حرب.ع. (2008). *خطاب الهوية*. الجزائر: منشورات الاختلاف.

فيليب كورتن. (2007). *العالم والغرب التحدي الأوروبي والاستجابة فيما وراء البحار في عصر الإمبراطوريات*. الرياض - السعودية: العبيكان للنشر.

كايل لاسكوريتس. (2017). *نظام دول الوفاق الأوروبي وحوكمة القوى العظمى اليوم*. كاليفورنيا - الولايات المتحدة الأمريكية: منشورات Rand.

O.Bruno & Autres .(2009). *Les Idntités collectives à l'heure de la mondialisation* .Paris-France: CNRS Editions, Séries: Les Essentiels de l'Hermès.

Edgar Morin .(2011) .*La voie: Pour l'avenir de la nature humaine* .Paris - France: Editions Fayard.

Erving Goffman .(2013) .*La Mise en scène de la vie quotidienne* .Paris - France: Editions de Minuit.

Genevieve Vinsonneau .(1997) .*Culture et Comportement* .Paris - France: Armand Collin Editions.

Genevieve Vinsonneau .(2012) .*Mondialisation et identité culturelle* .Paris- France: Boeck Editions.

Genevieve Vinssonneau .(2002) .*L'identité culturelle* .Paris - France: Armand Collin Editions.

J.L Dorais .(2001) .*Inuit identities* .Laval- Canada: Presse de l'université de Laval.

J.L Dorais .(2004) .*La construction de l'identité* .Laval- Canada: Presse de l'université de Laval.

Jean Claude Kaufman .(2004) .*L'invention de soi. Une théorie de l'identité* .Paris - France: Armand Collin Editions.

Joeil Candu .(1998) .*Mémoire et identité* .Paris - France: P.U.F Editions.

Levi Strauss .(1987) .*L'identité* .Paris- France: P.U.F Editions.

Michel Serres .(2013) .*L' Incandescent* .Paris - France: Editions Le Pommier.

Vincent de Gaujelac .(2016) .*Identité In " Vocabulaire de la Psychologie* . "Paris- France: Erès Editions.